

رَأْيَاتُنَا
كُرَيْسِيَّتِي

عِيْنَةٌ مِّنَ الرِّوَايَةِ
(لِلتَّصْفِحِ وَالْإِطْلَاعِ)

مِحْنَةُ الْبَرِيِّءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أغاثا كريستي

محنة البريء

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٥٨

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون



الأجبال
للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٥٨ بعنوان

Ordeal by Innocence

Copyright © Agatha Christie Ltd 1958

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٢٠

الفصل الأول

كان الوقت غسقاً عندما وصل إلى القارب.

كان قادراً على الوصول إليه في وقت أبكر من ذلك بكثير، والحقيقة أنه أجل الأمر بقدر استطاعته. بدايةً كان غداؤه مع أصدقاء له في ريديكي والحديث المتشعب غير الجاد وتبادل الشائعات حول الأصدقاء المشتركين. لم يكن لذلك كله أي معنى سوى أنه محجم -في داخله- عمّا هو مضطر لفعله. ثم دعاه أصدقاؤه للبقاء لتناول الشاي فوافق، ولكن جاء أخيراً الوقت الذي أدرك فيه أنه لن يستطيع تأجيل الأمر أكثر من ذلك.

كانت السيارة التي استأجرها في انتظاره، فودّع أصدقاءه وذهب ليقطع مسافة الأميال السبعة على طول طريق الساحل المزدحم، ثم صوب الداخل على الطريق الضيق المحفوف بالأشجار والذي ينتهي عند الرصيف الحجري الصغير للنهر. وهناك وجد جرساً ضخماً قرعه سائقُ السيارة ليستدعي القارب من الطرف الآخر للنهر.

قال السائق: هل تريدني أن أنتظرك يا سيدي؟

ردّ عليه آرثر كالغاري: لا، لقد طلبتُ سيارة ستقابلني هناك خلال ساعة من الزمن لتقلّني إلى درايموث.

أخذ السائق أجرته وإكراميته، ثم قال وهو يحدّق عبر النهر في عتمة الغسق: القارب يقترب يا سيدي.

ودّع السائق زبونه ورجع بالسيارة إلى الورا ثم قادها باتجاه التلة، وهكذا أمسى آرثر كالغاري وحيداً في انتظار القارب على جانب الرصيف.

بقي وحيداً مع أفكاره ومع خشيته ممّا يتتظره. "يا لوحشة المنظر هنا"... هكذا كان يفكر. يمكن للمرء أن يتخيل نفسه عند بحيرة سكتلندية نائية وهو في هذا المكان، ولكن الواقع على العكس من ذلك، فعلى مسافة قريبة انتشرت الفنادق والمتاجر والبيوت وأهالي ريديكي. وراح يفكر بالتباين الغريب بين المناظر الطبيعية في إنكلترا، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يفكر فيها بهذا الأمر.

سمع آرثر كالغاري صوت المجاديف بينما كان القارب يقترب إلى جانب الرصيف الصغير، فمشى على الطريق المنحدر وصعد إلى القارب بعد أن ثبته صاحبه بخطاف. كان رجلاً مسنّاً أعطى كالغاري انطباعاً غريباً بأنه وقاربه من جيل واحد.

هبّت نسيمات خفيفة باردة من البحر وهما يشقان طريقهما، فقال صاحب القارب: الجو بارد هذا المساء.

ردّ كالغاري ردّاً مناسباً، ثم وافقه على أن الجو أكثر برودة من اليوم السابق. كان يدرك (أو هكذا يظن) وجود شيء من الفضول

الخفي في عيني صاحب القارب ، فها هو ذا يرى رجلاً غريباً بعدما انتهى الموسم السياحي تماماً. ثم إن هذا الغريب كان يعبر النهر في ساعة غير عادية ، ساعة متأخرة لا يُعقل أن يكون فيها متوجهاً لشرب الشاي في المقهى القائم على الرصيف ، ولم يكن يحمل أمتعة مما يعني أنه لم يأت ليملك طويلاً.

وتساءل كالغاري إن كان قد جاء متأخراً حقاً؟ هل كان ذلك لأنه كان يؤجل تلك اللحظة في اللاشعور لكي يؤخر -قدر الإمكان- ما كان ينبغي فعله؟ خطر بباله نهر التيمز وهو يعبر الآن نهر روبيكون ، وكان قد راح يحدّق إليه دون أن يراه (هل كان ذلك أمس فقط؟!) ثم التفت ثانية ليرى الرجل الجالس مقابله على الطاولة. تذكّر ذلك المشهد وتخيل العينين المتيقظتين ، كان فيهما شيء لم يستطع إدراك كنهه تماماً. فيهما تحفظ ، فيهما شيء تم التفكير فيه ولكن لم يُعبّر عنه. وفكر في نفسه قائلاً: أحسب أنهما تعلمتا أن لا تُفصحا عمّا يفكر فيه صاحبهما.

كان الأمر بمجمله مخيفاً عندما يفكر فيه الإنسان ملياً. عليه أن ينجز ما عليه ثم ينسى! وعبس وهو يتذكر الحديث الذي دار بالأمس ، ذلك الصوت الهادئ المحايد يقول: أرى أنك عازم تماماً على عملك الذي تريده يا دكتور كالغاري؟

أجاب بحرارة: وما الذي يمكنني عمله غير ذلك؟ من المؤكد أنك تدرك؟ يجب أن توافق؛ إنه أمر لا أستطيع التهرب منه.

لكنه لم يستطع فهم معنى تلك النظرة في العينين الرماديتين المحايدتين وحيره قليلاً ما سمعه من جواب: على المرء أن ينظر إلى

الموضوع من كل جوانبه وأن يفكر فيه من كل النواحي.

- لا يمكن أن تكون في الأمر سوى ناحية واحدة من وجهة نظر العدالة.

تكلّم بحماسة ظاناً -لوهلة- أن تلك كانت طريقة وضيعة للتغطية على الموضوع وإغلاقه.

- نعم، إلى حد ما. ولكن الأمر أبعد من ذلك كما تعرف. أبعد من... من العدالة إن جاز لنا التعبير.

- لا أوافقك، ليس مع وجود العائلة التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

قال الآخر على عجل: "تماماً، تماماً، نعم. أنا كنت أفكر فعلاً في أفراد العائلة" (وهو ما بدا لكالغاري غير ذي معنى، لأنه لو كان المرء يفكر فيهم...) ثم مضى الرجل قائلاً بصوته الهادئ المريح: الأمر كله منوط بك يا دكتور كالغاري، وعليك بالطبع أن تعمل ما ترى أن من واجبك عمله.

* * *

رسا القارب على اليابسة بعدما قطع نهر روبيكون، وقال صاحبه بصوته الناعم وبلكنة ريفية: الأجرة أربعة بنسات يا سيدي، أم أنك تريد العودة؟

قال كالغاري: لا، لن تكون عودة.

لَكَمْ بدت الكلمات حاسمة متنبئة!

دفع الأجرة ثم سأل: هل تعرف بيتاً يُقال له «صني بوينت»؟
وعلى الفور لم يعد الفضول خافياً، فقد تفجر الاهتمام في
عيني الرجل شديداً وقال: بالتأكيد. إنه هناك إلى يمينك، بإمكانك
رؤيته من خلال تلك الأشجار. اصعد إلى التلة على طول الطريق
الجديد، وهو البيت الأخير في النهاية تماماً.
- شكراً لك.

- هل قلت «صني بوينت» يا سيدي؟ حيث كانت السيدة
آرغيل قد...
قاطعته كالغاري فوراً حيث لم يشأ أن يناقش الأمر: نعم، نعم،
إنه هو.

ارتسمت على شفّتي الرجل ابتسامة خفيفة غريبة وبدا -فجأة-
كتمثال قديم لوجه خبيث: إنها هي التي سمّيت البيت بهذا الاسم،
وكان ذلك أثناء الحرب. كان منزلاً جديداً طبعاً، حديث البنيان،
ولم يكن له اسم. ولكن الأرض التي بُني عليها، الأرض المشجرة،
كانت تدعى «فاير بوينت»، ولأن «فاير» تعني «الحية» فإنها لم تجده
اسماً ملائماً لمنزلها، لذلك أطلقت عليه اسم «صني بوينت»، ولكننا
ما زلنا ندعوه باسم «فاير بوينت».

شكره كالغاري بسرعة وتمنى له أمسية سعيدة ومشى صاعداً
التلة.

بدا وكأن الجميع في بيوتهم، ولكن تملكه إحساس بأن عيوناً
غير مرئية كانت تتلصص عليه من خلال نوافذ الأكواخ، وكأن الكل
يراقبونه ويعرفون وجهته، وكأن بعضهم يقول لبعض: "إنه ذاهب

إلى فاير بوينت". يا لفضاعة هذا الاسم المعكوس! وخطر له مقطع شعري يقول: «أحدٌ من ناب الأفعى».

محصّ أفكاره بسرعة، فعليه أن يتمالك نفسه ويقرر ما سوف يقوله بدقّة.



وصل كالغاري إلى نهاية الطريق الجديد وعلى جانبه البيوت الجديدة الجميلة، ولكلّ منها حديقةً واسعة فيها النباتات الصخرية وأزهار الأقحوان وغيرها من الأزهار. كان كل صاحب بيت يظهر ذوقه الخاص في تشكيلة حديقته.

وعند نهاية الطريق رأى بوابة كُتب عليها بخط قوطي: «صني بوينت». فتح كالغاري البوابة وعبرَ ممشى قصيراً. كان البيت يتصب أمامه هناك، بيتاً حديثاً جيد البنيان، مدخله مسقوف ولكن لا ملامح مميزة له. من شأن المرء أن يرى أمثال هذا البيت في أي موقع راقٍ في الضواحي أو أي مكان متطور آخر. كان المنزل -برأي كالغاري- غير جدير بالمنظر الذي يُطلّ عليه، فقد كان منظرًا رائعاً. كان النهر هنا يلتف بحدّة حول المكان حتى ليكاد يعود من حيث يجري، وكانت التلال المشجّرة مقابله، وفي أعلى النهر إلى اليسار كان ثمة انعطاف آخر للنهر، وكانت المروج والبساتين تظهر من بعيد.

نظر كالغاري إلى أعلى النهر وأسفله. كان يرى أن على المرء أن يبني قلعة في هذا المكان، قلعة خرافية غريبة، ولكن البيت الذي أُقيم هنا تميز -بدلاً من ذلك- بالذوق المتحفظ وكثرة ما أنفق عليه دون أن يكون فيه خيال أبداً. ولكن لم يكن المرء ليلوم عائلة آرغيل

على ذلك، فقد اشترى البيت ولم يبنوه. ومع ذلك فإن واحداً منهم هو الذي اختاره. أكانت السيدة آرغيل هي التي فعلت ذلك؟

خاطب نفسه قائلاً: "لا يمكنني تأجيل الأمر أكثر من ذلك". ثم ضغط الجرس الكهربائي عند الباب ووقف ينتظر، وبعد فترة قصيرة ضغط الجرس مرة أخرى.

لم يسمع وقع خطوات في الداخل، ولكن الباب فُتح فجأةً وبلا سابق إنذار. تراجع إلى الورا جفلاً، ولأنه كان متحفزاً للمشهد سلفاً فقد رأى المأساة منتصباً أمامه تسد عليه الطريق.

كان وجهاً شاباً، وفكر وهو يستجمع نفسه: إنه من نوع الجمال الأيرلندي. زرقة العينين الغامقة والظل الداكن حولهما والشعر الأسود المنتصب، والجمال الحزين لعظام الجمجمة والوجنتين.

وقفت الفتاة هناك، شابة يقظة عدائية. قالت: نعم؟ ماذا تريد؟

أجاب بشكل تقليدي: هل السيد آرغيل موجود؟

- نعم، لكنه لا يقابل الناس. أعني الناس الذين لا يعرفهم. إنه لا يعرفك، أليس كذلك؟

- نعم، لا يعرفني، ولكن...

شرعت تغلق الباب قائلة: إذن من الأفضل أن تكتب...

- أنا آسف، ولكنني أريد مقابلته لأمر خاص. هل أنت الآنسة

آرغيل؟

أجابت بالإيجاب متذمرة: أنا هيستر آرغيل، نعم. لكن أبي لا

يقابل الناس... لا يقابل دون موعد. فمن الأفضل أن تكتب له رسالة.

- لقد جئت من مسافة بعيدة.

لكنها لم تتأثر، بل قالت بما يشبه الاتهام: كلهم يقولون ذلك، لكنني ظننت بأن مثل هذه الأمور قد توقفت أخيراً. أظن أنك صحفي؟

- لا، لا، أبداً.

نظرت إليه بارتياح كما لو أنها لم تصدقه ثم قالت: حسناً، ما الذي تريده إذن؟

رأى من ورائها في الصلاة على مسافة ما وجهاً آخر، وجهاً عادياً مسطحاً، لو أراد وصفه لقال إنه يشبه الفطيرة المحلاة! وجه امرأة في العقد الأوسط من عمرها ذات شعر أجعد رمادي مصغر ملتصق برأسها، وقد بدت وكأنها تحوم مترقبة مثل تنين يَظف.

- الأمر يخص أخاك يا آنسة آرغيل.

سحبت هيلستر آرغيل نفساً حاداً وقالت غير مصدقة: ما يكل؟

- لا؛ بل أخاك جاك.

انفجرت غاضبة وهي تقول: عرفت ذلك... عرفت أنك أتيت بخصوص جاكو. لماذا لا تركنا بسلام؟ كل شيء مضى وانتهى، فلماذا العودة إليه؟

- لا يمكنك أبداً القول إن شيئاً قد انتهى.

- ولكن هذا الأمر انتهى فعلاً؛ لقد مات جاكو، فلماذا لا

تدعه وشأنه؟ كل شيء قد انتهى. إن لم تكن صحفياً فأظنك طبيباً أو أخصائياً نفسانياً أو شيئاً من هذا القبيل. اذهب أرجوك؛ لا يمكنك إزعاج الوالد فهو مشغول.

بدأت في إغلاق الباب، وعندها وبسرعة فعل كالغاري ما كان عليه أن يفعله منذ البداية. أخرج الرسالة من جيبه ودفع بها إليها وقال: لدي رسالة هنا من السيد مارشال.

فوجئت بذلك. أمسكت بالمغلف بارتياب وقالت: من السيد مارشال في لندن؟

في تلك اللحظة انضمت إليها - فجأة - المرأة المتوسطة العمر التي كانت تتشاغل في زوايا القاعة. أخذت تنظر إلى كالغاري بإمعان وارتياب، ثم قالت: هل جئت من طرف السيد مارشال؟

كادت عبارتها تكون اتهاماً. أما هيستر فراحت تحمق في المغلف الذي أمسكته بيدها، ثم استدارت وأسرعت تصعد الدرج دون أن تنبس بكلمة.

ظل كالغاري عند عتبة الباب يتحمل نظرة الاتهام والارتياب التي كانت ترميه بها السيدة التّين. وراح يبحث عن شيء يقوله، لكنه لم يجد شيئاً، لذلك آثر حكمة الصمت. وفي الحال جاءه صوت هيستر بارداً محايداً: يطلب الوالد منك الصعود إليه.

ابتعدت المرأة المرتابة جانباً على مضض دون أن تتغير ملامح الشك في وجهها. مرّ بها ثم وضع قبعته على أحد الكراسي، وصعد الدرج إلى حيث كانت هيستر تنتظره. وقد استرعى البيت انتباهه،

إذ أحس أن فيه شيئاً من المراعاة الغريبة لقواعد الصحة والنظافة إلى الحد الذي رآه معه أقرب إلى مستشفى باهظ التكاليف.

تقدمته هيستر على الممر ثم نزلت ثلاث درجات، وبعدها فتحت أحد الأبواب وأشارت له بالدخول، ثم تبعته وأغلقت الباب وراءها.

كانت الغرفةُ غرفةً مكتبة، ورفع كالغاري رأسه شعوراً بالمتعة، فقد كان جو هذه الغرفة مختلفاً تماماً عن بقية البيت؛ إنها غرفة يمكن للمرء أن يعيش فيها ويعمل بارتياح. غطت الكتب الجدران، أما المقاعد فكانت فخمة، عتيقة قليلاً لكنها مريحة، وكانت ثمة فوضى جميلة لأوراق متناثرة على المكتب وكذلك لكتب على الطاولات. وبسرعة لمح امرأة شابة وهي تغادر الغرفة من باب في الطرف الأقصى، شابة جذابة نوعاً ما. ثم لفت انتباهه الرجل الذي نهض وأقبل لتحيته والرسالةُ مفتوحة في يده.

كان الانطباع الأول الذي كوّنه كالغاري عن ليو آرغيل أنه كان هزيباً جداً وكأنه خيال أو شبح إنسان! ولكن صوته بدا بهيجاً عندما تكلم، رغم أن القوة تنقصه. قال: دكتور كالغاري؟ اجلس من فضلك.

جلس كالغاري مقابل مضيفه، وتمّ كل ذلك بغير استعجال كما لو أنه في عالم لا قيمة كبيرة للوقت فيه. كانت هناك ابتسامة واهنة لطيفة على وجه ليو آرغيل وهو يتكلم ويربت على الرسالة بلطف وبإصبع شاحب، وقال: يقول السيد مارشال في رسالته أن معك رسالة هامة ستقلها لنا، رغم أنه لم يحدد طبيعتها.

ثم كبرت ابتسامته وهو يضيف: المحامون يحرصون دوماً على ألا يُلزموا أنفسهم، أليس كذلك؟

خطر ببال كالغاري بشيء من الدهشة أن الرجل الجالس مقابله إنسان سعيد. ليس بمعنى السعادة المتقدمة الحيوية كما هي السعادة عادةً، بل سعادة خاصة مُبهِمة لرجل رضي بالعزلة. كان هذا رجلاً لم يؤثر العالم الخارجي عليه، وهو راضٍ لأن الأمور ينبغي أن تكون كذلك. لم يعرف لماذا سبب هذا الأمر له الدهشة، ومع ذلك فقد كان مدهوشاً.

قال كالغاري: إنه من لطفك أن تقابلني.

كانت الكلمات مجرد مقدمة آلية، أضاف يقول بعدها: ظننت أن حضوري شخصياً أفضل من الكتابة.

ثم سكت قليلاً وبعدها قال بشيء من الانفعال المفاجئ: إن الأمر صعب، صعب جداً...

- استغرق من الوقت ما تشاء.

كان ليو آرغيل ما يزال مؤدباً ومحايداً. مال إلى الأمام، وكان واضحاً أنه يحاول المساعدة بطريقته اللطيفة، ثم قال: طالما أنك أحضرت هذه الرسالة من مارشال فمن المفروض أن تكون لزيارتك علاقة بابني التعس جاكو، أعني جاك. كان جاكو هو الاسم الذي نناديه به بيننا.

طارت من ذهن كالغاري كل الكلمات والعبارات التي أعدها بعناية. جلس هناك يواجه الحقيقة المرؤعة لما كان عليه أن يرويها.

تلعثم ثانية وهو يقول: من الصعب جداً...

تلت ذلك فترةٌ صمت قال ليو بعدها بحذر: إن كان هذا يساعدك... فنحن ندرك تماماً أن جاكو لم يكن بالشخص السويّ تماماً، ولن يُدهشنا أي شيء مما ستقوله لنا. كنت مقتنعاً تماماً -رغم هول المأساة- بأن جاكو لم يكن مسؤولاً فعلاً عن أفعاله.

- طبعاً لم يكن.

صدرت الكلمات الأخيرة تلك عن هيستر مما جعل كالغاري يجفل منها، فقد نسي وجودها للحظة. كانت جالسة على ذراع مقعد خلفه، وعندما أدار رأسه مالت إلى الأمام بلهفة وقالت كمن يذيع سرّاً: كان جاكو مريعاً دائماً... كان كالطفل الصغير تماماً. أعني عندما يفقد أعصابه... كان يمسك بأي شيء أمامه ويهجم عليك.

قال ليو آرغيل بصوت حزين: هيستر... هيستر، يا عزيزتي!

وضعت يدها على فمها بسرعة وقد جفل، ثم احمرّ وجهها وأخذت تتحدث بارتباك الشباب المفاجيء: أنا آسفة، لم أقصد ذلك. لقد نسيت. ما كان لي أن... أن أتحدث بهذا الأسلوب. والآن. بعد أن... أعني بعد أن انتهى الأمر و...

قال آرغيل: انتهى الأمر وانتهينا منه. كل هذا أصبح في الماضي. إنني أحاول... كلنا نحاول أن نشعر بأن الولد كان -بلا شك- غير سوي، وأنه كان أحد الفلقات الخاطئة للطبيعة. هذا هو أفضل تفسير للمسألة حسب ظني.

ثم نظر إلى كالغاري وقال: أتوافقني؟

قال كالغاري: لا.

سادت فترة صمت قصيرة، فقد جفل مستمعا كلاهما من نفيه القاطع الحاد الذي خرج فيما يشبه القوة المتفجرة. قال بارتباك وهو يحاول تخفيف أثر جوابه: إنني... أنا آسف. أنتم لم تفهموني بعد.

بدا آرغيل وكأنه يفكر. قال: آه! ثم أدار رأسه نحو ابنته وقال: أظن أن من الأفضل أن تتركينا يا هيستر.

- لن أذهب! لا بد أن أسمع وأعرف كل شيء.

- قد لا يكون الأمر ساراً.

صرخت هيستر وقد نفذ صبرها: ماذا يهم إن كان جاكو قد قام بأعمال مريعة أخرى؟ لقد انتهى الأمر.

تكلم كالغاري بسرعة قائلاً: أرجوك، صدقيني، الأمر لا يتعلق بشيء فعله أخوك، بل على العكس من ذلك تماماً.

- لا أفهم.

فُتح الباب في الجهة المقابلة وعادت الفتاة التي كان كالغاري قد لمحها من قبل. كانت ترتدي معطفها استعداداً للمغادرة وتحمل في يدها حقيبة صغيرة. قالت تخاطب آرغيل: أنا ذاهبة الآن، هل تريد أي شيء آخر؟

تردد آرغيل قليلاً (ورأى كالغاري أن من شأن آرغيل أن يتردد دائماً) ثم وضع يده على ذراعها وسحبها إلى الأمام وقال: اجلسي يا غويندا. هذا هو الدكتور كالغاري. هذه الأنسة فوغان التي...

سكت ثانيةً وكأنه في شك ثم تابع: "التي هي سكرتيرتي منذ سنوات". ثم أضاف: لقد جاء الدكتور كالغاري ليقول لنا شيئاً ما، أو يسألنا بضعة أسئلة عن جاكو.

قاطعته كالغاري: جئت لأقول لكم شيئاً، وإنكم تعقدون عليّ الأمر رغم عدم إدراككم لذلك.

نظروا جميعاً إليه بدهشة، لكنه رأى في عيني غويندا فوغان التماعه أشبه بالاستيعاب. بدا الأمر وكأنه في حلف مؤقت معها... كما لو أنها قالت: نعم؛ أنا أعرف، أعرف صعوبة التعامل مع عائلة آرغيل.

كانت فتاة جذابة كما رأى، مع أنها لم تكن صغيرة في السن كثيراً. ربما كانت في السابعة والثلاثين أو في الثامنة والثلاثين، ذات جسم ممتلئ وعينين سوداوين وشعر أسود وشكل عام يوحي بالحيوية والصحة، وقد أعطت انطباعاً بكفاءتها وذكائها.

قال آرغيل بشيء من البرود: لا أريد أبداً جعل الأمور صعبة عليك يا دكتور كالغاري، لم يكن ذلك قصدي قطعاً. هلاً تطرقت إلى الموضوع مباشرة؟

- نعم، أدرك ذلك. اعذرني على ما قلت، لكنه إصرارك وإصرار ابنتك على التأكيد باستمرار بأن كل الأمور قد انتهت الآن وانتهيتم منها. لم تنته الأمور. من الذي قال: "ما من شيء ينتهي أبداً حتى...؟"

أنهت الأنسة فوغان العبارة عنه: "حتى ينتهي بالشكل الصحيح". إنه اقتباس من كبلنغ.

أومات إليه برأسها مشجعة فشعر بالامتنان نحوها، ثم أكمل يقول: سأدخل في الموضوع، وسوف تفهمون سبب ترددي بعد أن تسمعوا ما لدي... بل ستفهمون مصابي. لا بد لي -بدايةً- من ذكر شيء عن نفسي. أنا متخصص بعلم فيزياء الأرض، وقد كنت مؤخراً واحداً من أفراد حملة استكشاف القطب الجنوبي، ولم أرجع إلى إنكلترا إلا منذ بضعة أسابيع.

سألته غويندا: هل كنت في حملة هايز بنتلي؟

التفت نحوها شاكرًا لها وقال: نعم، كنت في حملة هايز بنتلي. إنني أخبركم بذلك لأوضح لكم خلفيتي، ولأوضح أيضاً أنني كنت منقطعاً لمدة سنتين تقريباً عن... عن الحوادث الجارية.

أكملت تحاول مساعدته: تقصد بالحوادث أشياء من قبيل المحاكمات الجنائية؟

قال: نعم يا آنسة فوغان، هذا ما عنيت به بالضبط. ثم التفت إلى آرغيل وقال: أرجو أن تغفر لي إن كان وقع كلامي مؤلماً، ولكن لا بد أن أدقق معك في بعض الأوقات والتواريخ. في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) قبل سنتين، وفي نحو الساعة السادسة مساءً زاركم ابنك جاك آرغيل (أو جاكو كما تسمونه) وقابل والدته السيدة آرغيل.

- زوجتي، نعم.

- أخبرها أنه وقع في ورطة وطلب منها نقوداً، وقد حصل مثل هذا الأمر من قبل.

قال ليو وهو يتنهد: مرات عديدة.

- وقد رفضت السيدة آرغيل طلبه، مما جعله عدوانياً ودفعه إلى تهديدها. ثم اندفع بقوة وغادر وهو يصيح ويعلن أنه سيعود وأن عليها "أن تدفع ما طلبه منها بالتأكيد". وقال: "أنتِ لا تريدينني أن أُسَجِّن، أليس كذلك؟"، وأجابته: "لقد بدأت أرى أن هذا ربما كان الأفضل لك".

تململ ليو آرغيل في جلسته وقال: لقد تباحثنا في الأمر معاً، أنا وزوجتي. كنا منزعجين من الولد تماماً، وقد أنقذناه مرات عديدة وحاولنا إعطائه فرصة بداية جديدة. لقد بدا لنا أن صدمة الحكم عليه بالسجن وما يلقاه هناك... ربما.

خَفَتَ صَوْتُهُ ثم قال: أرجوك، واصل كلامك.

أكمل كالغاربي يقول: وفي وقت لاحق من ذلك المساء قُتلت زوجتك، هوجمت بقضيب الموقد الحديدي وقُتلت، وقد وُجدت بصمات ابنك على القضيب، واختفى مبلغٌ كبير من النقود من أحد أدراج المكتب كانت زوجتك قد وضعت فيه قبل ذلك. ثم وجدت الشرطة ابنك في درايموث ووجدت معه النقود. معظم النقود كانت أوراقاً نقدية من فئة الخمسة جنيهات، وقد كُتِبَ على إحداها اسمٌ وعنوانٌ ممّا مَكَّنَ البنك من التعرف عليها باعتبارها النقود التي صرفها للسيدة آرغيل صباح ذلك اليوم، ثم وُجِّهت إلى جاكو التهمة وحوكم. صمت كالغاربي قليلاً ثم قال: ثم دين بالقتل العمد.

ها قد خرجت الكلمة المشؤومة. «القتل»... ليست كلمة ذات صدى، بل هي كلمة مخنوقة. يمكن للكلمة أن تُتَخَنق وتُستهلك، ولكن هذا لا ينطبق على الفعل نفسه!

مضى كالغاري قائلاً: لقد أفهمني السيد مارشال، محامي الدفاع، بأن ابنكم أكد براءته عندما أُلقي القبض عليه، صنع ذلك بأسلوب مرح واثق، إن لم نقل بأسلوب بالغ التأكيد. وقد أصّر على أن لديه دفعاً كاملاً بالغبية عن مكان حدوث الجريمة وقت وقوعها الذي حدّته الشرطة بين السابعة والسابعة والنصف. لقد قال جاك آرغيل إنه كان في ذلك الوقت يحاول إيقاف سيارة ما لتوصيله إلى درايموث، وقال إن سيارة أفلّته قبل السابعة والنصف بقليل على الطريق بين ريدمن ودرايموث، ذلك الطريق الذي يبعد مسافة ميل من هنا. لم يعرف نوع السيارة (فقد كان الجو مظلماً وقتها) لكنه قال إنها سيارة سوداء أو زرقاء داكنة يقودها رجل متوسط العمر. وقد بذل الشرطة كل جهد لاقتفاء أثر السيارة وسائقها، ولكن لم يتسنّ الحصول على تأكيد لهذه الأقوال. وكان المحامون أنفسهم على قناعة كاملة بأن تلك كانت قصة لفقها الولد بسرعة وأن تلفيقه لم يكن ذكياً أيضاً! وأثناء المحاكمة اعتمد الدفاع بشكل رئيسي على شهادة علماء النفس الذين حاولوا إثبات أن جاك آرغيل كان دوماً غير مستقر عقلياً، وكان القاضي لاذعاً بعض الشيء في تعليقاته على هذه الشهادة، وانتهى بموقف معادٍ تماماً للمتهم. وقد حُكم على جاك آرغيل بالسجن مدة الحياة، ومات في سجنه بعد ستة أشهر من بداية تنفيذ الحكم بمرض ذات الرئة.

سكت كالغاري فيما ثبتت عليه ثلاثة أزواج من العيون، وقد رأى الاهتمام والانتباه الشديد في عيني غويندا فوغان، والشك المتبقي في عيني هيوستر، أما عينا ليو آرغيل فكانتا خاليتين من أي تعبير.

قال كالغاري: هل توافق على صحة ما ذكرته من حقائق؟

قال ليو: ما سر دته صحيح تماماً، مع أنني لا أجد ضرورة لسرد حقائق مؤلمة نحاول كلنا نسيانها.

- أرجو أن تغفر لي، فأنا مضطر لذلك. لقد فهمتُ أنكم لا تختلفون مع المحكمة فيما أصدرته من حكم، أليس كذلك؟

- أعترف بأن الحقائق كانت كما وردت، أي أنك إن لم تبحث خلف الحقائق المجردة ستجد أنها جريمة قتل واضحة، ولكن إذا بحثت خلفها ستجد الكثير من الظروف المخففة. لقد كان الولد مضطرباً عقلياً، ولكن ليس بالمعنى القانوني للاصطلاح مع الأسف. وأنا أوكد -يا دكتور كالغاري- بأن راينا نفسها، زوجتي، ربما كانت أول من يغفر لذلك الولد البائس ويعذره لتصرفه المتهور. لقد كانت تملك تفكيراً متقدماً وإنسانياً وكانت ذات معرفة عميقة بالعوامل النفسية، وما كانت لتدينه.

قالت هيستر: كانت تعلم مدى ما يمكن أن يبلغه جاكو من فظاعة، وقد كان كذلك دائماً. بدا أنه لا يستطيع التحكم بنفسه.

قال كالغاري ببطء: إذن جميعكم ليس لديكم شك؟ أعني التفكير في احتمال أنه غير مذنب؟

حملقت هيستر إليه وقالت: كيف نشكّ في ذنبه؟ كان مذنباً بالطبع.

عارضها ليو قائلاً: ليس مذنباً حقاً، إنني لا أحب هذه الكلمة.

سحب كالغاري نفساً عميقاً وقال: كما أنها ليست صحيحة، فقد كان جاك آرغيل... بريئاً!

كان ينبغي لذلك الإعلان أن يكون مثيراً، إلا أن وقعه كان بارداً عليهم. كان كالغاري قد توقع ارتباكاً وفرحاً يمتزج بعدم التصديق ويتنازع سوء الفهم أو أسئلة متلهفة، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث. لم يظهر إلا الحذر والارتياب. عبست غويندا فوغان، وحملت هيوستر إليه وقد اتسعت عيناها دهشة. حسناً، ربما كان هذا طبيعياً، فمثل هذا التصريح يصعب استيعابه على الفور.

قال ليو آرغيل متردداً: هل تعني -يا دكتور كالغاري- أنك توافقني على موقعي وأنت لا تراه مسؤولاً عن تصرفاته؟

- بل أقصد أنه لم يرتكب أي جريمة! ألا يمكنك إدراك ذلك يا رجل؟ إنه لم يفعل ذلك. ما كان بوسعه قتلها، ولولا مجموعة الظروف المعقدة التعيسة شديدة الغرابة لكان بمقدوره إثبات براءته أو كان بمقدوري أنا أن أثبت براءته.

- أنت؟!

- أنا الرجل الذي أقله في السيارة.

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا ، ونأمل
أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت
لك قراءة ممتعة وعرفتك بالرواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية
(وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com